العودة

تأليف : مصطفى رحماندوست
ترجمة : حميد يكشام

قسم الأطفال والناشئين لمؤسّسةِ البِعْثَة

اَلعَودة

تأليف: مصطفى رحماندوست
ترجمة: حميد يگشام
الناشر: قسم الاطفال والناشئن لمؤسسة البعثة (بنياد بعثت)
الطبعة الاولى : ١٤١١
عدد النسخ: ٥٠٠٠ نسخة
ايران ــ طهران: شارع سميّة بين شارعي الشهيد مفتح وفرصت
رقم الهاتف: ٨٢١١٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يكنْ طبيعياً كعادتِه، فهو يختلِفُ عمّا كان عليهِ في الأيامِ الماضية. فمَعالِمُ القلقِ والاضطرابِ كانت باديةً على مُحيّاه، لأنهُ كان يعلمُ أنّ النبي(ص) عائدٌ اليومُ يَصحبُهُ المسلمونَ من غزوةِ(تبُوك)، وأنّ عليه أنْ يذهبَ الى الرسولِ الكريم(ص) خَجِلاً ليُبدي أسفَهُ واعتذارَه لعَدمِ تلبيته داعي الجهاد، وتقاعسِهِ عن المشاركة في تلك الحرب.

كان الصبحُ قد بدأ بإرسالِ خيوطِ النورِ البيضاء، الزاحفةِ نحو الوجود لتهزِم فلولَ جيش الظلام الأَسود، وتزيحَ كابوسَ العُتمةِ الثقيل عَن صدرِ الكائنات... في ذلك الوقتِ المبكرِ خرجَ «كعبٌ» من بيتِه.

أَخذَ ينظرُ إلى الأَبوابِ والجدرانِ وكأنها تشمَئِزُ من التطلع إليه. و على الرغم من أنه عاش في «المدينةِ المنورةِ» رَدحاً من الزَمن طويلاً، فقد بَدا كلُ شيء لديهِ غريباً.

كانت الأَزقةُ خاليةٌ من السابلة، ولو صادفَ أن مرَّبه عابرُ سبيلٍ فإنه يتحاشىٰ النظَرإليه، ويَسعىٰ جاهِداً ألاّ تلتقيَ عيناهُ بعِيَني ذلك الشخصِ، أياً كان.

إن أهلَ المدينةِ يعرفُ بعضُهم بعضاً، لذلك فقد علمَ الجميعُ بأن «كعباً» و صاحبيهِ «هلالاً» و «مرارةَ» قد آثروا البقاءَ فِي المدينة، و تخلوا عن مصاحبةِ الرسولِ(ص)

و بقيةِ المسلمين الذين توجهوا الى غزوةِ تَبوك . فقد فضّل الثلاثةُ المكوث في المدينة، وتقاعسوا عن الجهاد.

لذلك فقد كان «كعبٌ» ناقماً على نفسه... و علىٰ كلِ حالٍ فقد أوصلَ نفسَهُ الى دارِ «هلال». كان يمشي صامتاً مطرفاً خشية أن يَراه أحد. ولم تكن أشعةُ الشمس الذهبية قد غزتِ الدنيا بعدُ، حين وصل الى بيت «هلال». وكم كان سُرورُه عظيماً حين وجدَ البابَ مفتوحاً، ورأىٰ زميلَه «هلالاً» يتطلعُ الى الزقاق عَبَر نافذةٍ صغيرة و كأنه ينتظرُ قدومَ «كعب».

دخلَ «كعبٌ» الدار و قد اعتراه الخجل، فقد كانا شريكين في إثمِ التقاعس عن فريضةِ الجهاد.. و وَدّلو يُلقي بالتَبِعَةِ على ذلك الزميل، فيرتاحَ من هولِ عذابِ الضمير. غير أن «هلالاً» كان هو الآخرُ تحت وَطأةِ مشاعرِ القلقِ والاضطرابِ والحسرة. فهو واثقٌ من نفسِه بأنه ليسَ منافقاً ذا وجهين، لأنه مُسَلمٌ معتقدٌ، وأن الأيمانَ الصحيحَ راسخٌ في كيانِهِ لايتزعزع. فهو يعلمُ علمَ اليقين بأن الجهادَ واجبٌ شرعي، و أن علىٰ المسلمين المشاركةَ في الجهادِ والقتالِ حينما يتعيّنُ عليهم ذلك الفَرضُ الواجب... فقد حزَّ في نفسه أنه تقاعسَ وتَخلّفَ وامتنعَ عن اللحاقِ بالنبي الهادي(ص) و المسلمين، فقعدَ عن التوجه الى تبوك . فجعله ذلك الأمُر المشين يخجلُ من نفسِه و يُبدي حالةً قُصوىٰ من الندمِ وتقريع الضمير، والأسىٰ و الأسفِ والمرارة.

التقىٰ «كعبٌ» و «هلال» ولَم ينبسْ أحدُهما ببنتِ شَفة، بحيث أن أحدَهما لم يُلقِ التحيةَ علىٰ الأخر، و انزوىٰ كلٌ منهما دونَ إرادة في ركن من الغرفة صامتاً لايتفوّهُ بكلمة ، وكأن أثقالاً من الهموم حُطَّتْ فوقَ رأسيهما تجلُلهَما بالخزي والشنار، بل وكأن كتلاً من الصخر والحجارةِ قد اثقلتْ كاهلَ كل منهما بالعار.

لَم تمضِ على ذلك الصمتِ القاتل إلاّ لحظاتٌ حينَ وصلَ «مرارةُ» وعلاماتُ الحزن والهمِّ ترتسمُ على وَجهه... فقد بَدتْ عيناهُ متعبتينِ تُظهرانِ حالهُ المضطربة. فلم يكن أحسنَ حَظاً من «كعب» و«هلال». فان اطراقته وتجهمَ وجههِ دليلٌ واضحٌ على أنه كان يعاني الاحتراقَ داخل كيانِهِ المشحون ألماً وعذابا.

جلسَ الثلاثةُ في وضع لايُحسدونَ عليه، فقد طَغا عليهم الذلُ والخنوع، فلم يبقَ على أساريرهم شيءٌ من علامات السرور والابتهاج... آثارُ الأسىٰ والحسرة كانت باديةً على مَلامحِهم الحزينةِ الكئيبةِ بشكل جعلهم يَظهرون شِيباً عاجزين، وهمُ الشبابُ في رَيعان العُمُر... جلسُوا سكوتاً حتىٰ يَتصور من ينظرُ اليهم أن ليس لدىٰ أحدِهم مايقولهُ للآخر.

أخيراً فقد نطقَ «مرارةُ»، وكسرَ حاجزَ الصمتِ المطبق، فقال:

«ما العملُ الآن؟ فالنبيُ الكريمُ(ص) وسائرُ المسلمين سيعودونَ اليومَ من تبوك . ماذا علينا أن نصنعَ، ونحن في هذه الحال؟.»

رفع «هلالٌ» رأسَهُ وأجَاب:

«لاأعلم... لاادري كيف يجب أن أواجه إخوتي المسلمين!!! كم بودي أن تزلزلَ الأرضُ زِلزالها، فينهارَ السقفُ علىٰ رؤوسنا،وتنشق الأرضَ من تحتِنا فتبتلعنا في أحشائها المظلمة لنتخلصَ من العذابِ وَوَخزِ الضمير... كلما افكرُ في سبب تكاسلي عن الجهاد، وتقاعسي عن المشاركة في الحرب، لاأجدُ لذلك مبرراً أبدا... ليتني كنت مريضاً أو ذاعاهة اعتذرُ بهاعن ذلك التخلفِ المزري، والقعود المشين، لأجدَ عذراً اواجهُ به الهادي الرسول(ص) وإخواني المسلمين... ليتني... ليتني... أواه، ما اكثر عذابي، وأقبحَ ذنبي!!!.»

خيّمَ السكوتُ على الثلاثةِ تارةً أخرىٰ، واستمَّر لحظاتٍ حتىٰ تأوةَ «كعبٌ» وقال: « انني واللهِ لأَستحي من نفسي... انني شابٌ قويُ الشكيمةِ، صَعبُ المراس، الكلُ يشهدُ بعزيمتي في الحروب، ويعرفُ بأسي في النِزال، فكيف آثرتُ الانزواء في البيت، ولم أُساهمْ في الحرب!!. لقد كنتُ وما أزالُ قادراً على حملِ السلاح، واستخدام هذا الساعد القوي المتين لصالح الإسلام العظيم في حربهم و جهادِهم ضدَ الكافرين وأَعداء الدينِ الحنيف...فلماذا لم أفعلْ ذلك ؟؟ انني مشمئزٌ من حياتي، وأحسُّ بالخجل والحياء كلما نظرتُ إلى قوةِ ساعديّ، وقدرةِ نفسي.. فياليتني مِتُّ قبلَ هذا و كنتُ نَسيا مَنسياً.»

وعلىٰ كل حالٍ، فبعدَ لوم النفس، وتقريع الذات، قررَ الثلاثةُ أن يجتمعوا في ذلك اليوم مرة أخرىٰ و في مكان آخر، و يتُباحثوا،علّهم يَجدون عِلةً لما بدر منهم، أوعذراً لذنبهم العظيم... و كان اجتماعُهم الآخُر فاشلاً، ولم يجدوا مَفراً أومَهرباً من عذاب الوجدان، و وخز الضمير.

سكتوا تارةً أخرىٰ وكأنَّ على رؤوسِهم الطير..ومرَّ بهمُ الوقتُ وهم عنه غافلون وبينماهم مُنشغلون في التفكير بذنبهم، فقد نفذَ شعاعٌ مضيىء من نافذةِ الغرفةِ فانتبه الثلاثةُ، و أفاقوا من وجوهِهم الطويل، ونظَر بعضُهم بذهولٍ إلى البعضِ الآخر و كأنه يخبُرهُ بحلولِ الصباح، وانتشارِ أشعةِ النور و الضياء.

نهض «كعبٌ» من مكانه، ودنا من الشباك ، فرأىٰ الزقاقَ مزدحماً أكثر من أي وقتٍ مضىٰ، الناسُ فرحونَ مستبَشرونَ، تعلو وجوهَهم ابتسامةُ البهجةِ و السرور، وتطفحُ على أساريرهم علائمُ الفرحةِ والحبور، فقد كان تردُ المارةِ بشكلٍ يختلف عن سائرِ الأيام.

ودون أن يوجّهَ كلمةً الىٰ «مرارةَ» أو «كعبٍ»؛ نهضَ «هلالٌ» ينوي الخروجَ من الدار. لكنّ «مرارة» وقفَ في وجهه ليمنعَهُ من ذلك وهو يقول:

«علىٰ أية حالٍ، فنحن قد أخطأنا، وارتكبنا— نحن الثلاثةَ— ذنباً عظيماً. وأرىٰ أن من الأفضل أن ننتظرَ عودةَ النبي(ص)، و نذهبَ للتشرفِ بلِقائهِ سويةً لنبديَ عذرَنا، ونظهرَ أسفَنا، لعلهُ يغفرلنا، و يعفوعنا.

* * *

ترك أهالي المدينة جميعاً أعمالَهم اليومية مُبتهجين فرحين، و يَمموا زرافاتٍ ووحداناً صوبَ الطريق المؤدية إلى دخول العائدين... حالة من الفرح و الترقُب قد أخذتَ منهم مأخذاً عظيماً، وقد لبِسوا أحسنَ ما عندهم من الملابس استعداداً لاستقبالِ النبي الكريم(ص) و أصحابِه الميامين، العائدين من غَزوةِ تبوك العظيمة.

كان الأمرُ الوحيدُ المهمُّ، الذي شغلَ بالَ الناسِ و تفكيرَهم، هو سلامةُ عودةِ النبي(ص) لأن ذلك بالنسبةِ لهم أكبرُفرحةٍ، وأعظمُ بُشرىٰ، فلم يفكروا بأمرِ الحرب و ما آلتْ إليه من نَصرٍ أوهزيمة. لقد كان جُلّ همِهم محصوراً بعودةِ المنقذِ العظيم(ص) سالماً معافىٰ و مُكللاً بُحللِ الصحةِ والعافية و رعايةِ الرحمٰن.

أطلَّ الصادقُ الأمينُ (ص) علىٰ الناسِ بطلعتهِ البهية، والبسمةُ تعلو ثغرَهُ الكريم، و قدأحاطبه المسلمون من المهاجرين و الأنصار، كما تُحيُط النجومُ بالبدرِ المنير، وهو يُحَدِثهم— كعادته— بلطفٍ ومَوَدّة، و يجيبُ على أسئلتهم و استفساراتِهم بجلاء ووضوح، و الناس مُصغونَ باهتمامٍ بالغ، و شوقٍ عظيم.

ثلاثةٌ فقط من بين ذلك الحشدِ السعيد؛ كانوا و اجمين... ثلاثة فقط فارقَ

السرورُ وجوهُهم، وكان الذلُّ والانكسارُ والخوفُ بادياً عليهم، فلم يكن بقدرتهم ان يتقدموا خطوةً واحدةً من شدةِ الخجل و الحياء... فقد عمدَ الثلاثةُ إلى التسترِ و التخفّي اثناء اجتيازِ حاراتِ و أزقةِ المدينة حتى بلغوا المكان الذي تجمعَ فيه المسلمون لاستقبال العائدين... بلغ الثلاثة ذلك المكان ليُعربوا عن اعتذارهم عمّا بدرَمنهم من ذنبٍ عظيم. غيرأن الناسَ واصلوا سيرَهم بمَسَرةٍ غيرَآبهين بتلك الوجوهِ الثلاثةِ الكئيبة و غيرَ مبالينَ بها. فقد بدا «كعبٌ» و«مرارةٌ» و «هلالٌ» و كأنهم غرباء أَجانِب.

و مع ذلك فقد أَخذوا يقتربون من موقف النبي(ص) دون أَن يكلّمَ بعضهم بعضاً فقد شغلهم عالَمٌ رهيبٌ من الندم و الأَسىٰ و الأَسف... كان كلٌ منهم يَودُّ لوأَن الآخَر ينوبُ عنه في الحديث. فقد كانوا يعلمون أن النبي(ص) مع ما يتصفُ به من خُلُقٍ عظيم، ومع ما يتَميّزُ به من رأفةٍ و رحمة، فهو لاينظرُ بوجه مُشرقٍ الىٰ اولئك الذين تخلفوا عن أداء الواجبِ الإلٰهي. و على الرغم من ذلك الإحساسِ فقد اقتربوا أخيراً من الموقفِ المهيبِ الجليل، وأصبحوا أمامَ هادي الأمةِ(ص) وجهاً لوجه. وكان— عليه الصلاةُ والسلام— يُحدّث الناسَ وهم مصغون إليه بلهفةٍ، ويستمعون إلى كلامه بشوق ورغبة... و ما إن وقع بصَرهُ الشريفُ علىٰ الثلاثةِ «كعبٍ ومرارةَوهلالٍ» وقد نكسوا رؤوسَهم، حتىٰ أعرضَ بوجهه الكريم عنهم، وواصلَ حديثَه مع الناس دونَ أن يكترثَ بالثلاثةِ الذينَ أحجموا عن المشاركةِ في حرب تبوك ، و كأنه(ص) أراد بذلك طردَهم واقصاءَهم عن جموع المسلمين العائدينَ و المستقبلين.

ولمّا أنهىٰ الرسولُ(ص) كلامَه، اتخذ «هلال» موقفَ الجرأة و تقدمَ خائفاً وَجِلاً، ثم بدأ الكلامَ مُتلجلِجاً ليبديَ اعتذارَهُ و ندمَه، وقال، والانهيارُ بادٍ عليه:

«يارسولَ الله... يا حبيبَ الله؛ نحن الثلاثةَ، نعتذرُ عمّا بدرَ منّا من تكاسل، ولم نَسِرْ معكم إلى تبوك ... إننا تعساء حُقاً، وإننا لَنادمون.»

فلم يأبه النبيُ(ص) بذلك الكلام، ولاردَّ عليه، بل واصلَ لقاءاتِه مع بقيةِ الناس... فأحسَّ الثلاثةُ بالمرارةِ واللوعة، ولم يجرؤ أحدهم على التكلم و الاعتذار، وانسلوا من بين الجموع مُطأطئين منكسي الرؤوس.

بعد ذلك اليوم صار كلٌ من «كعبٍ وهلالٍ ومرارةَ» في وضع غريب وعجيب، فلم يكن أحدٌ من الناس مستعداً للتحدث معهم، فقد قطع الجميعُ اتصالاتهم بأولئك الثلاثة، مقتدين بالرسول الأعظم(ص)... لا أحدَ يقابلُهم أويتعاملُ معهم... حتى الأقرباء قطعوا صلاتهم بمن فيهم الزوجةُ والأبُ والأمُ والأولاد... الكلُ يتهربُ منهم، و يبتعدُ عنهم.

انتشر نبأُ هذه الحادثةِ في كل مكان، حتى بلغَ ضواحيَ المدينة و قُراها... ثم تجاوزَ الى المدنِ الأخرىٰ بحيث لم يكن بامكانهم الفرارُ والذهابُ الى ملجأ آخرَ،ليتخلصوا من تلك النظراتِ الحادةِ المصوّبةِ إليهم باحتقارٍ وازدراء، والمنطويةِ على اللومِ والعتاب.

ذاعَ الخبرُ حتى وصلَ الى ملك دِولة «الغساسِنة» الذي يعتنِقُ المسيحية، والذي يكنُّ عِداءاً للإسلام والمسلمين و نبيّهم الكريم(ص). فأرسلَ ذات يوم رسولاً إلى «كعب» ومعه رسالةٌ يَدعو فيها «كعباً» إلى أن يترك النبيَّ، ويذهبَ الى الشام، ليقلِدَهُ هناك منصباً رفيعاً، ويجعلَه من رجال بلاطِه المعتمدين.

وحين وصلت اليه تلك الرسالة، أدرك مطامعَ أعداء الإسلام فيه، فاكفَهرَّ وجهُه و تألمَ تألماً شديداً، جعله يُسرعُ إلى زميليه في الأثم «هلالٍ ومرارةَ» فأخبرهما بدعوةِ عدو الإسلام له، فامتعضَ الرجلان من هذا الأمر، وضاقت بهما الأرضُ بمارحُبَتْ... فقرر الثلاثةُ أن [يغادروا] المدينةَ، ويلجأوا الى التلالِ المحيطةِ بها، علَّهُم ينالون العفوَ و المغفرة من لدن ربّ غفور رحيم... و بالفعل فقد نفذوا ما صمموا عليه.

فَرّوا من المدينة... من نظرات التعنيفِ واللوم و التقريع... من الصمت القاتل... من الذُل الذي كانوا يعانون منه الأَمَرَّين. فقد جفاهم الأهلُ والأصحابُ والأزواج والبنون.

هربوا صوب الصحارىٰ و القفار، ولاذوا بالأكمات و التلال الخالية من المياه والأعشاب.

رحلوا إلى الغربة و الوحدةِ التي عانوا منها الألم الكثيَر في المدينة بين الأهل والأقرباء...

* * *

مضىٰ شهرٌ على الثلاثة، وهم في حيرة هائمين على وجوههم، يقضون عتمةَ الليلِ بالتضرع إلى العليّ القدير أملاً بعفوه ومغفرته.

وخلال تلك الفترةِ لم يكن هناك أحدٌ يَقصدُهم ليتفقدَ أحوالَهم سوىٰ واحدٍ من أفراد عوائلهم بين الحين والآخر، جالباً لهم معه بعضَ الطعام، ثم يتركهم و يبتعدُ عنهم مُسرعاً، دونِ أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة... فيظلُ الثلاثةُ في وَحشةِ الظلام يبتهلون إلى الواحدِ الأحد سبحانه و تعالىٰ، يرجون منه العفو والغفران.

وذات يوم التفت «كعبٌ» إلى صاحبيه و قال:

«إن ذنبنا لعظيم... فرغم أننا كنا نستطيعُ إبداء الدعم و المساعدة لإخواننا المسلمين، فقد تلكأنا عن السير معهم إلى الحرب دونَ عذرٍ أومبرر. لقد كان عملنا سيئاً للغاية بشكلٍ أغضبَ حتى نبيَّنا ذا الشفقةِ والرحمة، وجعلنا منبوذين من قِبَلِ أهلِ المدينةِ جميعا، حتى أن أبناءَنا وازواجَنا أبدوا النفورَ والاشمئزازَ منها، ولم يرضَوا بوجودِنا معهم، و بين ظهرانيهم... ذلك هو جزاء كل أنانيّ يُفضّلُ ذاتَهُ على الجهادِ في سبيلِ الله... جزاءٌ مَن يتهربُ مِن السعي الى إزالةِ مشاكلِ المجتمع الأسلامي... جزاءٌ كل من يسعىٰ لتحقيق أغراضِهِ الخاصة، و مطامعِه الذاتية، ناسياً أومُتناسياً مايَهّم عامةَ المسلمين من أمور ومَهامّ... الآنَ وقد عرفَ كلٌ منا ذنبَهُ الذي قطع علاقةَ الناسِ به، وتعاملهم معه... فلماذا إذن يُكلمُ بعضُنا بعضاً؟؟ يجب أن تنقطعَ الصلةُ بيننا، ويذهبَ كلُ واحد منا إلى طرفٍ من هذه البيداء، دون أن يُحدثَ أحدُنا الآخَر، كما فعل مَعنا المسلمون... أليس كذلك ؟؟. صحيحٌ أننا أخطأنا... غير أننا مازلنا مسلمينَ موحّدين، لذلك يَنبغي أن يقاطعَ كلٌ منا زميليه، ويبتعدَ عنه.»

بعد هذا الحديث قررَ الثلاثةُ أن يفترقوا عن بعضهم، ولجأ كلٌ منهم إلى إحدىٰ الجهات، و اعتزلَ عن رفيقيه في غار، والألم يعتصُر قلبَه، والحسرةُ تهدُّ كيانَهُ، وأضحىٰ كلُ واحدٍ منهم يحسُّ في داخله بعاصفةٍ هوجاء من الهموم و الكآبة.

كانت هناك عاصفة أخرىٰ، قد هبَّت في الخارج... رياح عاتية رَملية شديدة، تعصِفُ بعنف في وجوهِ الثلاثة، وتذرّ الرمالَ القاسية على رؤوسهم و أبدانهم. فعمدوا الى الاحتماء من تلك الرمال بأكنافِ التلالِ وزواياها، ولكنها كانت لا تفي بالغرض، ولا تستطيعُ أن تصمد في وجه تلك الريح العاتيةِ الصَرصَر، لتحَميهم منها، وتجعلهم في مأمَنٍ مِن ذلك الغضبِ الجبّار، الذي كانَ يشتَدُّ لحظةً بعد أخرى ٰبحيث باتَ واضحاً أن لامَفرّ، ولامَفزَعَ لهم غيُر التضرع الى غفّارِ الذنوب، وستّارِ العيوب.

وحينما أحسَّ الثلاثةُ بهولِ موقفِهم أخذت دموعُ الندم و الأسىٰ تنهمرُ من عيونهم، واضطربَ كيانُهم بسببِ اليأس، والشعورِ بالوحدةِ والغربة... لقد تغيّر كل شيء، فأبطالُ الأمس المغرورون هائمونَ على وجوهِهم في البوادي والقفار، خسروا كل شيء، فهربوا إلىٰ الواحدِ الديّان، يطلبونَ العفوَ والمغفرةَ، رافعينَ إليه أكفَّ الضَراعةِ والتوسُل و هم يدعون بلهفةٍ وخشوع:

(اللّهمَّ، نحن اولئك الأبطال في ميادين الحروب... نحن الشجعان في سوح القتال... وها أنتَ ترانا ياحليمُ، يا غفور وقد ابتلينا في ظلمةِ هذه الليلة الموحشَة بعاصفةٍ شديدة، هي من علاماتِ غضبِك و سَخَطِك ... ربنا لاتُحَمّلْنا مالا طاقة لنابه، وارحمنا

برحمتِك الواسعة، انا كنا مذنبين... ربّنا لقد سجدنا لك مخلصين، وعبدناك مؤمنين، و عَرفناك إلٰهاً واحداً صمداً، لاشريك لك ولامُنازع. أنت مولانا و ملاذُنا، ولسنا نعرفُ ملجاً سواك ، فارحمنا و تُبْ علينا، إنك أنتَ التّوابُ الرحيم... وإن شئتَ— يا مَن اذا أرادَ شيئاً، أن يقولَ له كن، فيكون،... نعم إذا شئتَ فَأْمُر هذه العاصفةِ ان تَمَّزقَنا شَرَّ ممزق، أوتمحَونا من الوجود، لنتخلصَ من كل هذا العذاب... يا أرحمَ الراحمين، و يا غِياثَ المستغيثين.. »

استمرت العاصفة في هيجانِها، والرمالُ تضربُ وجوهَ العصاةِ الثلاثة، بَيْدَ أَنهم صاروا لايأبهون بها، بل أمسَوا يتمنونَ الموت، ولايفرون منه... فقد تبدلت أحوالهم، وهدأت نفوسُهم المضطربة، ودموعُهم ما انفكت تنحدِرُعلى أخاديد وجوههم الشاحبةِ الهزيلة، فتختلط بحبات الرمال... واصبحَ شغلُهم الشاغل أن يتوجهوا الى بارئ الكونِ طالبينَ العفو والرحمة، آملين التجاوز عن خطيئتهم، والرأفة بهم...

اشتدَّ هياجُ العاصفة، وتراكمتْ السحبُ، واكفهرت السماء بالغيوم،و شرعَ الرعدُ يُطلق أصواتاً مخيفةً مُرعِبَةً، وانهمرت الأمطارُ الشديدة كأفواهِ القِرب. فهدأت العاصفة أخيراً، وغدت مياهُ الأمطار الغزيزة تجري من كل جانب... فاختلطت دموعُ السماء بدموع المذنبين الثلاثة... تلك الدموع التي وهبت الطهارةَ لأرواحِهم المعذبة، كما طهّرت أمطارُ السماء مايحيط بهم من تِلالٍ و كثبان.

لم تكن الأمطارُ غزيزةً في البيداء فقط، فقد هطلت غلىٰ المدينة أيضاً، وغسلت الأزقةَ والحارات بما فيها من المنازل والبيوت... سُحُبُ الرحمةِ زيّنتْ دار النبي الأكرم(ص) بأمطار اللُطفِ الألٰهي، فنزل الوحيُ على حبيب ربّ العالمين، فأخبره بأن الله تعالىٰ قد قبل توبةَ أولئك المسلمين الثلاثة، ورضي عن النادمين الأوّابين الذين هربوا من المدينة.

وطلع الصبح مُشرقاً مضيئاً... فقد غسلت الأمطار كلَ شيء، حتى الهواء الذي كانت تفوح منه رائحةٌ طيّبةٌ و أريجٌ يُنعِشُ الأرواح.

بعثَ الرسولُ الأكرمُ (ص) بمَن يُخبِرُ التوابين الثلاثة: «كعباً وهلالا و مرارة» بعفوالله و مغفرتهِ ورضوانِه، و يعود بهم من التلال إلى المدينة.

حتى أن أهالي المدينة الذين نبذوا أولئك الثلاثةَ مدةَ خمسين يوماً قُربةً إلىٰ الله تعالىٰ، خرجوا ينتظرونهم بصدورٍ منشرحة، وثغورباسمة، وهم يهيمونَ شوقاً للقائِهم و رؤيتهم، واحتضانهم بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان و الرحمة. لقد كانت الفرحةُ عامة شاملة، والأملُ برحمة اللهِ طافحٌ على الوجوه المؤمنة.

وعلى البعدِ ظهرَ خيال التائبين الثلاثة، يصحبُهم مبعوثُ الرسول الكريم(ص). وأخذ الأربعة يتقدمون بهدوءٍ و سكينةٍ نحو مدينة النبي العظيم(ص)، وحينما اقتربوا من المستقبلين، عَلَتْ أصواتُ الزغاريد، و هتف الناسُ بصوت واحد «اللهُ أكبرُ... لاإلٰه الاّ الله،...».

* * *

ان هذه القصة التي بين يديك ، والتي انتهيتَ تَوّاً من قراءتها هي قصةٌ تاريخيةٌ حقيقية،وقعت أحداثها في زمنِ الرسول الأكرم،صلىٰ الله عليه وآلِه وسلِم، وقد أوحىٰ الغفورُ الرحيمُ إلى نبيهِ الكريم، قبولَه «توبةَ» أولئك الثلاثةِ فأنزلَ هذه الآيةَ الكريمة:

«...علىٰ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ وضاقتْ عليهم أنفسُهُم وظَنّوا أن لاملجأَ من إللهِ إلاّ اليه ثمّ تابَ عليهم ليتوبوا إنَّ اللهَ هو التوابُ الرحيم.» سورة التوبة/ الآية ١١٨

صدق اللهُ العليُ العظيم